الفصل الثامن
التفكير الجانبى

- تمهيد.
- المقصود بالتفكير الجانبى.
- التفكير الجانبى.. ضرورة لازمة.
- مبادئ التفكير الجانبى.
- مجالات استخدام التفكير الجانبى وأهدافه.

تمهيد :

منذ أيام أرسطو كان التفكير المنطقى يجل على أنه الطريقة الوحيدة المحترمة للتفكير. ولو صح هذا الإيمان بقدرة التفكير المنطقى على حل أية مسألة لأمكن إيجاد أية فكرة جديدة وقتما نشاء. ولكن كل منا يعرف كيف تروغ منا الأفكار الجديدة ونحن فى أشد الحاجة إليها. ومهما استعنا بالمنطق والتحليل ومهما كانت براعتنا فى المنطق والتحليل فإنها لاتأتى بجديد.

قد نعتقد إن التحليل المنطقى المتأنى يأتى بالحل حتما -لو كان هناك حل- على أساس أن التفكير المنطقى يركز على الحقيقة الواقعة، وهذا هو «التفكير الرأسى» المباشر أما النوع الآخر فهو «التفكير الجانبى»، فما هو الفرق بينه وبين التفكير الرأسى؟

يمكن توضيح الفرق بين التفكير الرأسى (المنطقى) وبين التفكير الجانبى، فى الآتى:

إن أصحاب التفكير المنطقى يركزون على الحقيقة الواقعة، لذلك يبدأ المفكرون الرأسيون من نظرة أكثر عقلانية للموقف ثم يتقدمون فى خطوات ثابتة متأنية نحو الحل، ويميل المفكرون الجانبيون إلى استكشاف كل الطرق المختلفة للنظر إلى شىء ما بدلا من قبول الطريقة التى تبدو واعدة بالحل والاكتفاء بها عن البدائل.

كان التفكير الرأسى دائما هو النوع الوحيد المحترم من التفكير، وكان «المنطق» هو الصورة القصوى لهذا التفكير والمثل الأعلى الذى على العقل أن يسعى لتحقيقه، ومهما قصر فى نتائجه. وربما كانت الحاسبات أفضل مثال لهذا الأسلوب، إذ إن على صانع البرامج بعد أن يعرف المشكلة، عليه أن يحدد المسار الذى يتم به استكشاف المشكلة. ثم يتقدم الحاسب الآلى بمنطق وبكفاءة لايضاهيها شىء لتنفيذ حل المسألة. إن هذا التقدم الإنسيابى خطوة بخطوة نحو الحل يختلف تماما عن طريقة «التفكير الجانبى».

أولاً : المقصود بالتفكير الجانبى :

لو أخذنا مجموعة من مكعبات الأطفال ووضعنا واحدا فوق الآخر سيمثل هذا بالضبط التفكيرالراسى (المنطقى)، أما التفكير الجانبى فهو ما يحدث عندما تبعثر المكعبات بطريقة عشوائية. وقد ترتبط المكعبات بعضها ببعض وقد تكون متباعدة تماما ولكن على أية حال قد يكون الشكل الناتج مفيدا تمامًا مثل البناء الرأسى. وتكمن رؤية قيمة التفكير الجانبى فى فعاليته فى الاستخدام العملى.

كل منا قد مرت عليه فى حياته مشكلة تبدو له مستحيلة الحل حتى يبرز فجأة حل بسيط، وبمجرد أن يفكر المرء فى هذا الحل يبدو له واضحًا جليا.

ولا يهتم التفكير الجانبى فقط بحل المشكلات، بل ويهتم أيضا بتوليد الطرق الجديدة لرؤية الأشياء وأساليب عملها، وبالأفكار الجديدة من كل نوع.

وفى أوضح الأمثلة التى تضرب عن التفكير الجانبى تبدو الحلول جلية منطقية فور الوصول إليها ويسهل جدا أن ننسى أننا قد توصلنا إليها «جانبيا» وليس «رأسيا». بالنظر من الحل نحو المشكلة تبدو الخطوات المنطقية المؤدية من المشكلة إلى الحل واضحة. والعديد من الناس على استعداد لشرح طريقة الوصول (منطقيا) إلى الحل فور كشف الحل ذاته لهم.

لابأس بتبرير طريقة الحل رأسيا لمشكلة ما بعد الوصول إلى الحل جانبيا، ولكن يكمن الخطر فى افتراض أن الحل يمكن دائما بالطريقة الرأسية والتى تظهر فقط بعد الوصول إلى الحل جانبيا.

أحد أساليب التفكير الجانبى يستغل هذه القدرة على التبرير العقلى، فبدلا من التقدم خطوة بخطوة نحو الحل فإنك تتخذ مدخلا جديدا اعتباطيا، ثم تحاول بناء جسر منطقى بين هذه النقطة الاعتباطية وبين نقطة البداية. إذا أمكنك بناء هذا الجسر المنطقى، فإنه يخضع لاختبارات الصرامة المنطقية. ولو صح هذا الطريق، فإنك تكون قد توصلت إلى موضع مفيد لم تكن لتصل إليه أبدا بالتفكير المنطقى المعتاد. وحتى إذا لم تتمكن من البرهنة على صحة هذا الوضع (الاعتباطى) منطقيا، فإنك قد تولد أفكارا جديدة نافعة أثناء محاولاتك هذه.

قليل من الناس يعشقون فكرة التفكير الجانبى حتى أنهم يحاولون استخدامها بدلا من التفكير الرأسى فى كل المناسبات. والأكثر منهم الذين لاتعجبهم فكرة التفكير الجانبى ويصرون على أن فى التفكير الرأسى الكفاية. والحقيقة هى أن طريقتى التفكير تكمل إحداهما الأخرى. فعندما يعجز التفكيرالرأسى المعتاد عن إيجاد حل لمشكلة ما أو عندما نبحث عن فكرة جديدة، فإن علينا استخدام التفكير الجانبى.

إن إيجاد الأفكار الجديدة يحتاج التفكير الجانبى لأن التفكير الرأسى يحتوى على قيود تجعله أقل فاعلية لهذا الغرض، ولايمكن اجتناب هذا لأن هذه القيود ذاتها (الدقة والتحديد) هى عينها جوانب قوة التفكير الرأسى (المنطقى) إذا نظرنا إليها من الجانب الآخر.

إن العقل جهاز وظيفته البحث عن حالة التوازن الأمثل مما يجعله يفسر موقفا ما فى حدود التفسير الأرجح. وتحدد الخبرة الماضية واحتياجات اللحظة الراهنة درجة الاحتمال هذه. التفكير الرأسى يبحث عن الاحتمالات الأعلى ودونه تستحيل الحياة اليومية، لأن

كل فعل وكل إحساس كان سيتعرض لأشد تمحيص وتحليل، ولن يقبل شيء على علاته- وبالتالى كان أى إنسان سيغرق فى التفاصيل المعقدة ويشله الارتباك. وظيفة التفكير هى إنهاء نفسه بالانطلاق إلى العمل فور التعرف على الموقف، وهذا ممكن فقط إذا ترتب على التفسير ذى الاحتمال الأعلى الفعل ذو احتمال الفائدةالأعلى.

وعندما يؤدى التفكير عبر المسار ذى الاحتمالات الأقل إلى أفكار جديدة فعالة تكون لحظة الاكتشاف السعيدة، وفى التو والحال يتحول هذا المسار الفكرى إلى مسار ذى احتمال عال. وهذه اللحظة هى الهدف من الأسلوب الجانبى.

يبدو التفكير الجانبى على علاقة بالتفكير الإبداعى لأنه أيضا يهتم بالأفكار الجديدة. ولكن التفكير الجانبى يشتمل على التفكير الإبداعى وزيادة، إذ ليست كل نتائج التفكير الجانبى إبداعات حقه وأحيانًا لاتزيد عن كونها طرقا جديدة لرؤية الأشياء. وأيضا يتطلب التفكير الإبداعى موهبة التعبير عن الذات، بينما التفكير الجانبى مفتوح أمام أى شخص يهتم بالأفكار الجديدة.

ليس التفكير الجانبى وصفة سحرية تستخدمها بنجاح فور أن تتعلمها، ولكنه موقف عقلى وعادة للتفكير. والطرائق المتنوعة التى يتم وصفها فى هذا الحديث تهدف التوعية بهذه النوعية من العمليات الفكرية وليست مجموعة من الوصفات الجاهزة لحل المشاكل على طريقة كتب الطهى. وليست المسألة تحولا مفاجئا من الاعتقاد فى قدرة المنطق على حل أية مسألة إلى الإيمان بفائدة التفكير الجانبى، فليس هذا الأسلوب وحيا يوحى وإنما هو موقف ذهنى ومهارة تنمو بالتدريب.

لو كانت الأفكار الجديدة هى الثواب العادل للعمل المثابر والجهد الجهيد لكانت الأمور على مايرام. وهناك الكثيرون الذين اجتهدوا وثابروا والذين يستحقون أن تتوج نواياهم الطيبة وتضحياتهم باحرار أحدهم ولو لفكرة واحدة جديدة. ولو كان هذا هو الطريق لغمرت المجتمع سعادة أعظم، حيث يشجع وينظم ويعترف بهذا الجهد الجهيد وراء الأفكار الجديدة لو كانت هذه هى الطريقة.

لكن لسؤ الحظ ليست الأفكار الجديدة حكرا للذين يمضون السنوات العديدة يبحثون عنها ويطورونها. لقد أمضى **تشارلز داروين** مايربو على العشرين سنة عاملا فى نظريته للنشوء والارتقاء (أصل الأنواع).

وقد يستغرق تطوير ورسم تفاصيل فكرة جديدة أعواما من العمل الشاق ولكن الفكرة ذاتها تبدو فى ومضة حدس. ولو كانت الفكرة تتضمن طريقة جديدة لرؤية الأشياء، فمن الصعب تصور طريقة غير ومضة الحدس تأتى بها. ولا يتطلب هذا سنوات من العمل

الشاق فى مجال الفكرة الوليدة، يكفى فقط عدم الرضا عن الأفكار القديمة الموجودة. بل وإن سنوات العمل الشاق هذه قد تقف حائلا فى وجه ظهور الفكرة الجديدة، حيث تكون قيمة وفائدة الفكرة القديمة قد تدعمت عبر السنوات- لو كان لهذه الفكرة/ الأفكار أى نفع أصلا. ودنيا البحث العلمى مليئة بعلماء لاتنقصهم الدقة فى العمل ولا المنطق ولا المنهج ورغم كل هذا تروغ من أحدهم الأفكار الجديدة طيلة حياته.

تأتى أغلب الأفكار الجديدة عندما ترغم المعلومات الجديدة الواردة من التجارب والمشاهدات الباحث على أن يعيد تقييم الأفكار القديمة. وربما كان طريق البحث عن المعلومات الجديدة هو الأضمن للوصول إلى الأفكار الجديدة ولكن حتى هذا الطريق لايعتمد عليه بمفرده، لأن المعلومات الجديدة قد تفسر من خلال النظرية القديمة وتطوع بحيث تحافظ على القديم.

ويمكن أن تأتى الأفكار الجديدة دون إضافة أية معلومات جديدة، ويجوز تماما أن نعيد النظر فى المعلومات القديمة ونحللها ثم نعيد ترتيب أجزائها بطريقة جديدة تماما وثرية جدا.

إذا تحدثنا عن الأفكار الجديدة يخطر على بال أغلب الناس الاختراعات والنظريات العلمية، وفيهما تبدو المعرفة التكنولوجية الملائمة ضرورية حتى تتحقق فكرة جديدة. يصح هذا ولكن لايكفى امتلاك المعرفة التكنولوجية لتوليد الأفكار الجديدة تلقائيا.

وهناك تفسير انهزامى لمراوغة الفكرة الجديدة للعقل الذى يطاردها، يقول إنها من عمل الصدفة. وإلى أن تجتمع المكونات الأساسية للفكرة فى وقت واحد وبطريقة معنية فى عقل رجل واحد لا وجود لفكرة جديدة، وبالتالى ليس بيدنا عمل أى شىء إلا الانتظار، وللأسف تدعم شواهد عديدة هذه النظرة السلبية الانهزامية!.

إن للعقل البشرى كفاءة عالية فى تطوير الأفكار الجديدة بمجرد أن تولد.

نعم إن تطوير الأفكار هو مجال تفوق فيه العقل بل وقد صنع العقل لنفسه امتدادات (عقولا الكترونية) تساعده ليتوغل أبعد فى عملية تطوير أفكاره. ولكن من الجهة المقابلة نجد قدرة العقل على خلق الأفكار الجديدة الأصيلة فقيرة، فتأتى تلك متناثرة وعشوائية، رغم تواجد تكنولوجيا قادرة على تحقيقها فعلا. بمعنى؛ اتاحة التكنولوجيا تجعل تنفيذ الفكرة ممكنا. ولكن التكنولوجيا وحدها لا تصنع أفكاراً جديدة.

لو أخذنا بالنظرة الانهزامية لميلاد الأفكار المبتكرة لما كان باليد حيلة ولاكتفينا بالانتظار والرجاء والأمل، ولكن -ولحسن الحظ- يوجد ما يمكن عمله بهذا الشأن.

أن هناك قدرة أو مهارة لتوليد الأفكار الجديدة ينميها هؤلاء الأفذاذ. وليست هذه المقدرة هى محض الذكاء وإنما هى عادة أو طريقة متميزة للتفكير.

قد تكون الجوائز المادية لفكرة جديدة ضخمة وقد تكون تافهة، لقد صنع مخترع آلة الحصار ثروة بينما عاش من اخترعوا أول آلة حياكة فى فقر. والجائزة الوحيدة المضمونة هى لذة الانجاز والكشف، وهى لذة نادرا ما تدانيها لذة أخرى. إذا ولدت فكرة فهى لاتموت، فبطريقة ما تكتسب معنى الخلود.

ثانيًا: التفكير الجانبى .. ضرورة لازمة:

التفكير الجانبى ضرورة بسبب حدود وقيود التفكير الرأسى، أما كلمتا «جانبى» و«رأسى» فيوحى بهما الاعتباران التاليان:

١ - لايمكنك أن تحفر حفرة جديدة فى مكان جديد بأن تستمر فى حفر نفس الحفرة الأولى. والمنطق هو أداة تعميق وتوسيع الحفر الموجودة (الأفكار القديمة). ولكنك مهما حاولت تحسين حفرة فى مكان خاطئ فلن تنقلها محاولاتك إلى المكان الصحيح. ومهما بدا هذا الاقتراح بديهيا فإن من الأيسر على صاحب الحفرة (الفكرة القديمة) أن يستمر فى تعميقها وتوسيعها عن أن يتركها ويبدأ حفرة جديدة.

والتفكير الجانبى هو أن تحاول مرة أخرى فى مكان جديد. أما كراهية ترك الحفرة قبل اتمامها فهى كراهية ضياع جهد الحفر دون عائد لهذا الاستثمار الفكرى. وأيضا من السهل الاستمرار فى عمل الشىء عن التوقف والتساؤل مرة أخرى عما يمكن عمله.

٢ - لايمكنك أن ترى اتجاها جديدا بأن تستمر فى النظر والحملقة فى نفس الاتجاه القديم. وبمجرد أن يربط العقل بين فكرتين ينشأ اتجاه للتفكير، ويكون من السهل جدا على العقل أن يواصل ربط الأفكار فى نفس الاتجاه، ومن العسير جدا أن يتجاهل هذا الاتجاه، فتجاهل شىء قد يكون غاية فى الصعوبة ولاسيما إن لم يكن له بديل. هذا النوعان من الالتزام العملى القوى لحفرة نصف محفورة (ويعنى: فكرة قديمة قيد التطوير والثبات) قد نسميها بالالتزام تجاه الجهد المستمر وبالالتزام باتجاه للتفكير.

وفى الوقت الراهن توجه معظم جهود العلم نحو تعميق وتوسيع بعض الحفر المقبولة وقد تتفاوت قدرات الباحثين على الحفر ولكنها هى نفس الحفر.

ولكن الأفكار العظيمة والقفزات فى دنيا العلم غالبا ما يأتى بها أناس يتجاهلون الحفر القديمة ويبدأ الواحد منهم حفرته الجديدة بنفسه. أما ماذا يدفعهم لهذا؟ فربما كان عدم الرضا عن الأفكار القديمة أو حتى الجهل بوجودها وأحيانا مزاج شخصى يدفع صاحبه

لأن يكون مختلفا عن الآخرين، بل وحتى مجرد النزوة قد تدفع لابتكار، أما ندرة ظاهرة القفز من الحفرة القديمة إلى بدء حفرة جديدة فسببها فعالية النظام التعليمى! فالتعليم النظامى مصمم لتلقين الدارسين الحفر (الأفكار) التى حفرها من قبلهم من هم أفضل منهم. ولو لم يكن التعليم هكذا لأدى إلى حالة من الفوضى فلايمكن احتواء التلاؤم والكفاءة العملية فى بطن نظام يشجع على التمرد على الأفكار القديمة. وأيضا لايعنى نظام التعليم بتقدم الأفكار لأن وظيفته هى إتاحة ونشر المعارف التى تبدو ذات فائدة لأكبر عدد ممكن. باختصار التعليم نقل (تلقين) أفكار وليس إبداعا.

من أصعب الأمور أن نبدأ بقبول الأفكار القديمة ثم نتجاهلها بعد ذلك ونبدأ من الصفر. أما أن نجهلها بداية ونبدأ عملية البحث بحرية فهو أمر يسير.

تمدنا فكرة تحت التطوير باتجاه لبذل الجهد، أما أن تكون بلا وجهة فكرية محددة بينما لديك الطاقة والجهد، فهذا يعرضك للإحباط الشديد. كما أن إثابة الجهد بطريقة ملموسة حاجة أساسية وكلما كانت النتائج فورية كانت الأمور أفضل.

إذن تعميق الحفرة القديمة (تطوير الفكرة القديمة والمستنباط النتائج منها) يقدم النجاح الملموس الفورى وضمانا للانجاز فى المستقبل، فإذا أضفت لهذه العوامل التعود والارتياح للفكرة السائدة القديمة تصورت مدى صعوبة التجديد. أما أن تطلب من المفكر ترك أفكاره القديمة إلى موضع جديد لم يحدد بعد فهو مطلب عسير، بل وحتى إن كان سيتركها لفكرة جديدة قد تحددت.

من المثير أن القعود والتفكير بدلا من الاستمرار فى الحفر فى موقع خطأ ليس بهذا العسر عند المنقبين عن النفط، فالحفر يكلف مالا. بينما العكس يصح لدى الباحثين العلماء ورجال الصناعة فلابد من المضى قدما فكيف للعقل أن يمارس جهده المدرب دون فكرة (ولو كانت خاطئة أو ليست هى الأفضل).

لابد لمعاول المنطق أن تعمل وتنجز ولو فى تعميق حفرة خطأ. وصار الانجاز هو الشىء الأهم لدى الباحثين، لأنه مقياس جهدهم الأوحد والشرط الضرورى حتى يستمر العالم الباحث فى عمله.

لاتوجد طريقة لتقييم القدرة على الانجاز سوى الانجاز الفعلى، فلا أحد يتلقى أجرا على القعود لأنه يتحلى بهذه «القدرة» وبالتالى فمن الأفضل أن يستمر فى التفكير بطريقة خاطئة على أن يقعد ويفكر فى بداية جديدة. ويبدو لنا أن هذا الجالس المفكر أقدر على اختيار موضع البداية الجديدة ولكن لايمكن الحكم على هذا حتى يحقق انجازا ملموسا.

فى المستقبل، ربما كان من الأجدى كثيرا أن يكون لدينا بعض الناس الذين ينجزون الشىء الملائم (المبدعون والمجددون) بدلا من أن يعمل الجميع بالطريقة القديمة الأدنى. ولكن فقط القلة على استعداد لاستثمار أنفسهم فى مجرد الإمكان والاحتمال، ففى ظل الأوضاع الراهنة، من منا على استعداد للتفكير؟ ومن منا مستعد لأن يحرم من التقدم إذا أجهضت محاولاته ولم تتم فكرته؟

ماذا عن الخبراء (المختصين)؟ لماذا نسمى الخبير خبيرا؟ لأنه يفهم الحفرة الراهنة (الأفكار الراهنة السائدة فى مجال تخصصه) أفضل من خبير مثله، ومن الضرورى أن يختلف الخبراء فيما بينهم حتى يكون هناك خبراء بعدد الخلافات بينهم، وهكذا يوجد ترتيب هرمى للخبراء.

بل وربما يكون الخبير قد ساهم فى تشكيل الحفرة (مجال خبرته)، ولذا لانتوقع منه أن يقفز خارجا منها ليبدأ من جديد. كما لايبدى الخبراء رغبة فى التمرد على القديم، فهذا شىء يفعله بسهولة وبقوة أولئك الذين لايملكون حق التمرد من خارج التخصص، وهكذا نجد الخبراء دائما يعيشون فى سعادة فى أعماق الحفر الخاصة بهم، والتى يتوغلون فيها بعمق يجعل الخروج منها أمرا غير وارد ولا محتمل.

وتحت ضغط الجهد المنطقى يتضخم الكثير من الحفر (الأفكار المتخصصة)، لأن العقل يجد سعادته فى هذا، ولأن التعليم يشجعه، ولأن المجتمع قد اصطفى منه الخبراء ليتابعوا هذه الجهود. وعديد من هذه المعارف المتخصصة له قيمة عملية وأهمية ولكن أيضا منها أفكار تبدو تبديدا للجهد.

كثيرا ما نهون من خطر سيطرة الأفكار القديمة التى تبدو ملائمة ونفترض اتخاذها كخطوة وسطية نحو أفكار أفضل. وهذا خيار مفيد عمليا، ولكنه يضع صعوبة أمام ظهور فكرة جديدة. وكمثال لهذا: إذا أمسك رسام كاريكاتير متمكن بتعبير وجهى معين فى خطوط قليلة واضحة، فمن الصعب جدا -بعدها- نسيان هذا التعبير على الوجه المرسوم والتوصل لطريقة جديدة للتعبير عنه.

المعلومات الجديدة التى يمكن أن تؤدى إلى هدم الأفكار القديمة قد يتم امتصاصها إلى داخل النمط القديم بدلا من هدمه. تماما مثلما تبتلع قطرة الزئبق الكبيرة القطرات الأصغر إذا وضعت بجانبها على سطح زجاجى. وتقدم البارانويا (جنون الاضطهاد) مثلا متطرفا لسيطرة فكرة على عقل إنسان، وخلافا لسائر الاضطرابات العقلية لاتنقص قدرة العقل على التفكير المنطقى بل قد تتضاعف.

أما الشىء غير السوى فى حالة هذا المرض (المنطقى) فهو تسلط فكرة الاضطهاد وتآمر الآخرين على المريض فأى حدث مهما كان تافهًا أو بعيدا يفسره ضده. فالعطف على

المريض يراه هذا محاولة لاكتساب ثقته ثم القضاء عليه، والطعام الذى يقدم إليه يظنه مسموما والصحف اليومية تحوى تهديدات ضده وهكذا.

وليست كل حالات سيطرة فكرة تبدو صارخة كحالة مريض البارانويا ولكنها على وجه العموم كالمدن القديمة، فالمدن القديمة تحدد تخطيط وبناء الأماكن المحيطة بها، وتنسب الأماكن الجديدة إليها. ولكن يستحيل تغيير تخطيطها كله بطريقة جذرية فقط، إذ يمكن عمل بعض التعديلات عند حوافها الخارجية.

كيف يمكن الهرب من سيطرة القديم على الجديد؟ توجد طرق عدة للتفكير الجانبى واحداها تعمد التعرف على الفكرة البارزة المسيطرة وتحديدها بل وحتى كتابتها، وبإظهارها يسهل تلافى تأثيرها، ولكن كشف وتحديد الفكرة يتطلب العناية والحذر.

وطريقة أخرى تبدأ بالاعتراف بالفكرة البارزة المتسلطة ثم بتغيير شكلها تدريجيا حتى تفقد ذاتيتها وتنهار. ويمكن إجراء التغيير بالمبالغة فى أحد ملامح الفكرة وتضخيمها (كما فى الكاريكاتير وفنون الكفاهة).

قد يبدو لنا رفض الفكرة المتسلطة بقوة طريقا أيسر، ولكنه فى النهاية تبديل للسيطرة الإيجابية بسيطرة سلبية، بل وربما دعم هذه الفكرة بدلا من أضعافها (على طريقة «لاتفكر فى الأفيال الوردية»).

وقد نجد هذه الحالة لدى صغار الطلاب الذين يطالعون كتب الفلسفة بشراهة، فدائما يجد أحدهم نفسه بين أحد خيارين: أما أن يتفق مع ما يقرأ أو أن يرفضه، وفى كلتا الحالتين تحول سيطرة الفكرة المتلقاة دون أن يخلق عقله القادر على التفكير أفكاره الخاصة.

ربما كان من الأفضل لك أن لاتقرأ وتجازف بأن تأتى أفكارك الجديدة مكررة لما قدمه أحد من قبلك أفضل من أن تتلقى نفس هذه الأفكار من الكتب ولكن لاتكون لديك أية أفكار تخصك. وإذا تلت الفكرة الجديدة فكرة قديمة فإن الفكرة القديمة تتحكم فى شكل الفكرة الجديدة، بل وقد تعوقها أصلا. وكثيرا ما نرى أفكار معلم جيد تتردد أصداؤها فى أذهان تلاميذه -وهم بين موافق لها وناقد لها- وتعوق دون إطلاق قدرتهم على صنع أفكارهم الخاصة.

فى حالات كثيرة يكمن الخطر فى تجاهل وجود عدة طرق بديلة للنظر إلى موقف ما وليس فى الوعى الزائد (المضخم) بفكرة. وفى قصة تلميذ المدرسة الابتدائية الصغيرة الذى كان يعتقد أن العنكبوت يسمع بأرجله والذى برهن على صحة نظريته المضحكة بأن وضع العنكبوت على المائدة ودق بيده عليها وصاح فيه «اقفز، اقفز» فقفز العنكبوت ثم قطع أرجله الست وكرر التجربة (العلمية!) فلم يقفز العنكبوت وهكذا تأكدت لديه نظريته.

وكل باحث علمى قد سمع بهذه القصة المضحكة، ولكن لو سألت العديد من الباحثين الأمناء لذكر لك كل منهم من واقع خبرته الشخصية كم من مرة نسى أن هناك طرقا بديلة لرؤية نتائج تجاربه. لقد تسلطت عليه نظريته فهى الأكثر عقلانية وهى أيضًا ملكه الخاص وقد ذهب بعض العلماء (وغير العلماء أيضا) فى الدفاع عن أفكارهم الشخصية إلى آماد بعيدة.

قد يتعذر الهروب من قبضة فكرة مسيطرة حتى يأتى العون من الخارج، ويحدث هذا طيلة الوقت فى دنيا التشخيص الطبى للأمراض، حيث يتوصل طبيب يتابع حالة المريض، عن كثب ولمدة طويلة، إلى تشخيص ما ثم يأتى طبيب آخر فيرى حالة المريض بعيون جديدة، ويعيد ترتيب أجزاء صورة مظاهر المرض، ويخرج بتشخيص (مختلف) ناجح. وفى المجتمعات المنغلقة على نفسها -علمية كانت أو صناعية- تتزاوج الأفكار فيما بينها كمثل زواج الأقارب Inbreading ولايأتى هذا بجديد حتى يأتى غريب من خارج هذا المجتمع ويقدم وجهة نظر جديدة تثمر أفكاراً مبدعة.

إن كنا قد ذكرنا سيطرة فكرة من خلال التعصب لها فيجب أن نذكر أيضا سيطرة الفكرة من خلال الكسل عن غيرها. فأن نقبل فكرة جاهزة تنظم ما لدينا من معلومات أسهل بمراحل من أن نبدأ من الصفر ونفكر لأنفسنا. والعاملون بالإذاعة والتليفزيون والكتابة وغيرها يقدمون «الأفكار الجاهزة المعلبة» للناس ولهم هذا الحق بل وربما هذا واجبهم.

وبتقديم هذه «الأفكار الجاهزة» و«المعلبات الفكرية»، فإنهم يقدمون للجمهور أيضا بعض الأفكار والمواضيع المسيطرة Dominant Themes. ومن الطبيعى ألا تولد هذه «المعلومات المعلبة» أية أفكار جديدة لدى كسالى المتلقين. وفى بعض الحالات يحيا إنسان تحت سيطرة أفكار معنية عليه ويرى الآخرون بوضوح تأثير هذه الأفكار عليه بينما لايدرى صاحبنا نفسه بحالته هذه.

ربما يبدو من الأمور الشاذة أن نطلب من الناس أن يتربى لديهم الشعور باللذة عندما يكونون على خطأ، ولكن عندما تخسر فى مناقشة شريفة، فإنك تفور بحريتك حين تهرب من سجن فكرة قديمة (فشلت فى اختبار المناقشة). وتكتسب طريقة جديدة للنظر للأشياء. ومن الناحية الأخرى فإذا فزت فى المناقشة، فإن كونك على حق يزيد من تقديرك لنفسك، كما قد تتطور بعض أفكارك بينما تدافع عنها. وربما يستفيد متلقى الفكرة الجديدة منها أكثر من صاحبها (وكما استفاد مهندسو التليفونات علميا من الصمام الالكترونى بينما لم يستخدمه مخترعوه).

وحتى إذا نبذت الفكرة الجديدة بعد فترة وجيزة، فمجرد تحطيم النمط الفكرى القديم مكسب يستحق الجهد المبذول فى مناقشة شريفة حتى ولو خسرناها كانت خاسرة.

ومما يثير الإعجاب، رسم كاريكاتير يعبر عن تسلط فكرة على عقل يفكر رأسيا، عن رجل لديه قطة، وقد مل من فتح الباب وغلقه لدخول وخروج القطة إلى البيت. وفتح الرجل لقطته بابا صغيرا فى أسفل باب البيت، ثم بعد أن ولدت قطيطات صغيرة فتح بابا ثانيا أصغر لدخول وخروج القطيطات.

إن إنحدار الماء فى جريانه، لهو مثال جيد لاندفاع التفكير الرأسى نحو الاحتمالات الأعلى (التضاريس المنخفضة). وعلى النمط نفسه، يمكن تمثيل الفكرة السائدة Dominant Idea بنهر يحفر مجراه ويعمقه كلما تدفق ويبتلع المجرى الرئيس للنهر المياه، فيقلل من احتمال تكوين روافد للنهر أو بحيرات ويبقى النهر وحده. وبالطريقة نفسها، تمنع الفكرة السائدة تكوين البدائل الجانبية. ومعرفة هذه الحقيقة هى أول خطوة نحو التفكير الجانبى.

ثالثا: مبادئ التفكير الجانبى:

من المهم أن تجسد التجربة الأفكار المجردة، بشرط أن تكون بسيطة ومثيرة، فهى تمهد الطريق للفرد ليبدأ فى ممارسة التفكير الجانبى (رؤية البدائل) بنفسه وتشجعه عليه.

فى البداية نعرف كلمتى «الموقف» Situation والإدراك Perception، فالموقف هو ذلك الجزء من العالم الذى يواجه حواس الشخص مباشرة وقبل إعمال الفكر. وفى اللحظة الواحدة يوجه الانتباه إلى جزء من الموقف (لأن رقعة الانتباه محدودة وأقل من الموقف).

وتنشأ خبرة الإدراك الحسى عن توجيه الانتباه، ويتكون هذا الإدراك من كل المعلومات التى يحصلها أى عدد من الحواس عن الموقف. والموقف هو جزء من بيئة الشخص يتوجه إليه انتباهه. وبالطبع يمكن أن تسهم كل الحواس فى صنع إدراك لموقف ما.

ويمكن تحديد أربعة مبادئ للتفكير الجانبى، ولاينفصل أى مبدأ منها عن الثلاثة الأخرى، لأن بينها تداخلا وتفاعلا وهى:

١ - التعرف على الأفكار المتسلطة Dominant Polarizing والتى تستقطب بقية الأفكار وتخضعها.

٢ - البحث عن عدة اختيارات إدراكية بديلة عن الرؤية الأحادية التى تحددت فى المبدأ الأول.

٣ - الهروب من قبضة المنطق الحديدية المسيطرة على عمليات التفكير لأن المنطق لايأتى بأفكار جديدة.

٤ - استخدام الصدفة أى ادخال عنصر من العشوائية والمفاجأة لتجديد الأفكار.

حيث إن التفكير الجانب يبحث عن البدائل الإدراكية Perceptual Alternatives فإن هذه البدائل تبدو بلا حدود. وكل البدائل متساوية، لأن تجميع الأجزاء فى أى منها يكون الشكل نفسه. ومن المعروف أن اختيار أى بديل إدراكى ليس له قاعدة تفرضه وإنما هو اختيار شخصى، فيختار شخص الطريقة الأسهل أو الأبسط ويختار الآخر ما تعود على رؤيته. وفى البداية يعرف المرء أنه اختار واحدا من بدائل، ولكنه مع تكرار استخدام هذا الاختيار الإدراكى ينسى، وينتهى به الأمر إلى الاعتقاد الجازم بأن ما يراه هو الطريقة الوحيدة الممكنة لرؤية الموقف.

وتزداد قوة هذا التأثير إذا صادف استعمال الاختيار الإدراكى نجاحا.

أما الاختيار الإدراكى أو تحليل موقف ما فغالبا ما يتم بطريقة عابرة، ولايخضع لفحص دقيق للبحث عن الأفضل. وعند نقطة الاختيار لابد من الحذر من سيطرة هذه الرؤية الواحدة.

إن التحول عن النظرة الظاهرة البادية لأول وهلة إلى إيجاد وتجريب بدائل إدراكية عديدة، لهو مهارة تحتاج إلى ممارسة وخبرة طويلة.

اكتساب مهارة التحول عن النظرة الواحدة الظاهرة للأمور إلى توليد البدائل الإدراكية يحتاج لتعود وتمرين طويل. وبعد اكتساب الثقة والمهارة يمكن للفرد توليد وتجريب طرق عديدة للرؤية بسرعة وسهولة.

إن وجود الأسماء والكلمات يجمد طريقة النظر لموقف ما، بينما التفكير الجانبى سيال ومتحرك بلا حدود، يتشكل ثم يذوب ثم يعيد التشكل بلا نهاية. وبمجرد تجميد عناصر الموقف فى أسماء وكلمات لايمكن بعدها فعل أى شىء إلا إعادة ترتيب الكلمات فى أنماط مختلفة، وعلى الأغلب لايأتى هذا التلاعب اللغوى بجديد.

ويرتبط جمود الكلمات بجمود التقسيم والتصنيف، وبالتالى جمود النظرة إلى الأشياء. كما أن جمود التصنيف قد يضر فإن لدى أصحاب التفكير المرن فرصا أعلى لانقاذ الحياة وللنجاة.

إحدى طرق الهروب من جمود الكلمات هى التفكير بالصور البصرية، ودون أية كلمات. ويمكن أن يستمر المرء فى التفكير بنجاح بهذه الطريقة، ولكن تنشأ الصعوبة عند الحاجة للتعبير عن هذه الأفكار البصرية فى كلمات. ولسوء الحظ ليس كل الناس يجيدون هذه الطريقة، وليست كل المواقف يمكن فحصها بها، ولكن يفيد جدا تطوير هذه العادة، فللصور مرونة وقابلية للتشكل لاتملكها الكلمات. ولانعنى بالتفكير بالصور البصرية مجرد

استعمال صور الشيء الأصلية كما هى كمادة للفكر، وإنما تستغل اللغة البصرية للتفكير التى تستخدم الخطوط والرسوم التوضيحية المبسطة والألوان والرسوم البيانية وعديدا من وسائل أخرى بصرية توضح علاقات يطول وصفها بلغة الكلمات المعتادة. ويسهل تشكيل هذه الصور تحت تأثير التفكير المتدفق، وأيضا من السهل تمثيل تأثير عملية ما فى الماضى والحاضر والمستقبل فى آن معا (كما فى المنحنيات البيانية الرياضية محور أفقى يمثل الزمن ومحور رأسى لمتغير ما وهكذا).

وأيضا يمكن الهروب من أجزاء المسألة الثابتة بتفكيك أجزاء الموقف (المسألة) ثم إعادة تركيبها فى وحدات مختلفة جديدة. وبهذه الطريقة تسهل إعادة تنظيم تلك الوحدات الصغيرة عن إعادة تقسيم الموقف برمته إلى أجزاء جديدة.

ترى ما الذى يحدد عدد الطرق المتنوعة التى يمكننا أن ننظر بها إلى موقف معين؟

يحددها جمود وحدات الوصف المتاحة وعدد العلاقات المتاحة. وطبعا تؤدى قلة عدد العلاقات المتاحة إلى عقم ملحوظ فى وجهة النظر، وكلما ازداد عدد العلاقات التى تحورها فى ترسانتك العقلية اقتربت رؤيتك من الأصالة واتسمت تعاملاتك مع هذه العلاقات بالثقة.

ومع بعض الجهد والكثير من التمرين يمكنك إيجاد طرق عديدة لرؤية موقف ما تفوق أصلا الطرق المحتمل ورودها على ذهن أقل تمرسا. ولكن إذا كان أغلبها أو حتى كلها بلاقيمة فيا ترى متى يستحق الأمر محاولة استخدام المدخل الجانبى للحل؟ ومتى نكتفى بالمدخل المنطقى الرأسى؟

استخدام المدخل الجانبى ضرورى فى فهم المواقف وحل المشكلات التى يعجز فيها المدخل الرأسى عن تقديم الحل. وهناك بعض المسائل يمكن حلها رأسيا (منطقيا ورياضيا) ولكن بخطوات مطولة. وفى أمثال هذه الحالات يقدم المدخل الجانبى للتفكير العون الأكيد حيث يمنحنا حلولا أفضل وأسهل.

والمشكلة هى موقف يتطلب إجابة (وبالطبع ليست الإجابة ظاهرة) ويقتضى الأمر البحث عن إجابة. وأحيانا تكمن المشكلة فى طريقة النظر الراهنة لموقف ما، فإذا تحولت طريقة النظر تلاشت المشكلة.

إلى أى حد يذهب المرء فى استعماله للتفكير الجانبى؟

يرجع هذا إلى الرغبة الشخصية والتكوين المزاجى. فيلجأ البعض إليه فقط عند فشل المدخل الرأسى فى تقديم الحل، وفى حالة نجاح المدخل الرأسى، فإن هؤلاء يوفرون على أنفسهم وقت المحاولات الجانبية، ولكنهم أيضا يضيعون فرص التوصل لحلول بديلة جانبية

وجديدة (إن وجـدت) فى مسائل بحـثهم. أما الذين تـستهويهم فكرة استـعمال التـفكير الجانبى مـع كل مسألة فـسوف يضـيع منهم بعض الوقت فى البداية، ولكن مـع التدريب تصبح عمليات التـفكير لديهم أسرع ثم أسرع، ومع التمكن والاقتدار سـيحصدون حلولا جانبية لما يمكن حله رأسيا، بل وربما أيضا حلولا جانبية أكثر فاعلية من الأولى.

ربما كان عدم وجـود مشكلة هو أكبر مـشكلة! فإذا كان كل شىء يسيـر على ما يرام فلماذا تفكر؟ وفى ماذا تفكر؟ فبلا عثـرات وبلا عوائق لاتفكير يبحث عن حلول وبالتالى لاتجديد للأفكار ولاتقدم. وأى عمل لا يواجه مـصاعب لاينمو. وإذا لم تقف فى وجهك مصاعب ظاهرة فمن أصعب الأمور أن تحـاول تحديد المشكلة، وقد يحتاج هذا البحث عن تعريف المشكلة إلى تفكير جانبى طويل.

ربما كانت الرفـاهية والرخاوة والدعـة وغياب المصاعب لـيست إلا مرادفات للعـجز الفكرى وفقر الخيال. فنحن نقبل الموجود على أنه تصور ملائم حتى يحدث مايبرهن على قصوره عن تأدية وظيفته المتوقعة.

ليس فى طبيعـة الأشياء ما يحـتم علينا الانتظار حتى نجد وقائع جـديدة -بالصدفة- فتنشط لدينا تطويـر نظريات جديدة. وبعد أن انتـبهنا إلى أن النظرية Theory هى شىء اعتـباطى-اختـيارى، وأن لدينا دائمـا القدرة على تطوير نظريات جديـدة، فلماذا لانمـسك بزمام المبادرة وقتما نشاء؟

لايأتى التفـكير المنطقى بجديد، بـل وأنه قد يعوق تكوين الأفكـار الجديدة- هذا هو المبدأ الثالث للتفكير الجانبى.

ويعانى بعض الناس من التطرف المنطقى بدرجات متفـاوتة، فتراهم فى سعى لاينتهى لتعريف كل فكرة يتعاملون بها منطقيـا وتحليلها وتركيبها. وليس الخطأ فى المنطق وإنما فى استخدامه للبحث عن الجديد والذى لاينتج عنه إلا تكرار القديم.

ويتلخص التـفكير المنطقى (المتسلـسل) فى أن تبدأ من نقطة مقـبولة، وتتـقدم خطوة بخطوة، وأن تكون دائما على صواب فى كل خطوة.

أما فى التفكير الجانبى فليس على الفرد أن يبدأ من فكرة صحيحة، ولاعليه أن يكون على صواب فى كل خطوة.

والحاجة لأن تكون على حق فى كل خطوة هى أكبر عـقبة فى طريق التجديد. ورغم ذلك، بدأ علماء ومكـتشفـون عـباقرة بأفكار خـاطئة وانتهـوا إلى مخـترعات وكـشوف مبهرة.

إن التفكير الرأسى (المنطقى) لايخلو من العيوب، مثل: ليس التفكير الرأسى اقتصادا فى الفكر، لأن عليه أن يستبعد كل البدائل التى يقابلها فى كل خطوة يتقدمها، وليس على التفكير الجانبى هذا. والتفكير «الرأسى» يتوقف فور عثوره على الممر المنطقى الموصل للنتيجة المطلوبة، ولايرى أى داع للمزيد من البحث عن طرق أفضل أو أقصر. بينما يمكن أن يستمر التفكير «الجانبى» فى البحث حتى بعد الوصول إلى المطلوب فهو لايتقيد باتجاه معين يحدده. وتحديد الاتجاه هو طريقة التقدم الوحيدة التى يعرفها التفكير المنطقى للتقدم، وطبعا يختار الاتجاه المطروق المألوف المليئ بالعلامات الإرشادية، وينسى كل الطرق الأخرى الممكنة. أما إذا كان الاتجاه المختار خاطئا فالتوقف -إلى حين- أفضل من الاستمرار. ولا يعنى التوقف الشلل أو الجمود وإنما إعادة النظر والدوران حول المسألة للاستكشاف، وهذا طبعا أفضل من الاستمرار فى الاتجاه الخاطئ.

قد يتطلب إيجاد الحل أن يبتعد الفكر عن الطريق الملكى للمنطق وأن يلتف ويدور حول المسألة ويستكشف الإمكانات. ولا يواجه التفكير الجانبى أية صعوبة عند الابتعاد عن المشكلة والدوران حولها تمهيدا للحل.

وإذا كانت ضرورة أن تكون على حق فى كل خطوة تخطوها بفكرك هى إحدى قيود المدخل الرأسى للبحث، فهناك أيضا ضرورة أن تحدد كل شىء تفكر فيه بصورة نهائية وقاطعة. ويعشق العقل المكبل بقيود المنطق وضع كل الأفكار فى قوالب ولايرتاح أبدا للتغيير، فأية كلمة لابد أن يظل لها نفس المعنى ولايمكن أن تغيره ولو للحظة واحدة لتلائم تدفق الفكر فى اتجاه جديد.

وسنرى المفكر الرأسى يقف فوق كل صخرة بثبات ثم يخطو بتأن إلى التالية، وهكذا يستمر دائما وأبدا فى تصنيف الأشياء وتجنب الغموض. ويهتم التفكير «الرأسى» بتحليل الأشياء إلى عناصر وتصنيفها، بينما يهتم التفكير «الجانبى» بالتأليف بينها بطرق فعالة ومبدعة أى بالتركيب المبدع Creative Synthesis.

وتتمادى بعض العقول فى «شهوة التصنيف المنطقى» فتحاول حبس الأفكار فى أقفاص من الرموز، ثم ربطها بأفكار أخرى وباستخدام الرموز أيضا. وقد يسهل هذا النوع من التعريف الرياضى Mathematical Definition التعامل مع الأفكار ولكنه أيضًا قد يحددها أكثر مما هى عليه فى الواقع.

الالتزام بقيود العلامات والرموز يجمد تدفق الأفكار السيال، ويماثل هذا تحويل مياه مجرى مائى إلى قوالب من ثلج، ثم نقلها بدلا من تركها تتدفق بسلاسة وتلقائية عبقرية.

قد تبدو بشائر الفكرة الجديدة ضبابية غامضة فلا يمكن الإمساك بها فى هذه المرحلة المبكرة لترتيبها وتقديمها منطقيا. بينما تتسلط على أغلب المفكرين (البشر) الرغبة فى الانقضاض على الفكرة، وتسليط الأضواء الكاشفة للعقل والمنطق عليها، واتمام نموها بالقوة. ونتائج هذه المحاولات عكسية فهى تقتل الفكرة تماما كما يقتل جامع الفراشات فراشة جميلة أعجبته بدلا من أن يحافظ عليها ويراقبها وهى ترفرف بانطلاق. يقتل التعجل الفكرة الناشئة ولاينتهى إلا بطبعة جديدة من القالب القديم.

التعبير عن أفكارك طريقة ممتازة لتنظمها وغالبا ما يكون هذا على أساس منطقى. أما التعبير عنها قبل نضوجها فيصبها فى قالب القديم، قالب مفتعل مفروض عليها لم تكن لتتشكل فيه لو تركت الفكرة لحالها. وغالبا ما يكون القلق ونقص الثقة فى فعالية التفكير الجانبى سبب التعجل فى استعمال المنطق. فدون الثقة وتحت ضغط القلق يعمل المفكر الشىء الوحيد المؤكد، لأنه يظن أن عليه أن يعمل شيئا لينهى ما بدأ. والواقع أن ترك الفكرة ومراقبتها بهدوء وبدون تدخل إلا لمساعدتها بينما تتطور بتلقائية هى الطريقة الصحيحة. أما إذا توقفت عملية تطوير الفكرة لنفسها فدعها مؤقتا وتحول بانتباهك عنها، فالقوة لاجدوى لها، دع الفكرة تفكر لنفسها.

يندفع من يعانى من فقر فى الأفكار الجديدة ويحاول الامساك بأية فكرة جديدة تمر على خاطره. وهذا الاندفاع فى استعمال المنطق وفى التعبير عن الأفكار بكلمات لاينضج الفكرة قبل أوانها، بل يعوقها.

أما الفكرة كاملة النضج فواثقة مستعدة للفحص، بل وتفرض نفسها بقوة على صاحبها.

والتجربة أفضل طريقة للتعامل مع فكرة جديدة، ولكن إذا كانت أدوات التجربة متاحة فالانتباه إليها يوجه التفكير فى اتجاه الأدوات وما يمكن عمله بها، ويغير اتجاه تطور الفكرة التلقائى. وقلة نادرة من الباحثين يمكنهم تحويل مسار أفكارهم بحرية بعيدا عن الاتجاه الذى تحدده الأدوات المتاحة لهم والأفكار السائدة فى زمانهم ومكانهم. ويسمح التأخر فى الحصول على أدوات التجربة بفرصة لنضج فكرة البحث، وربما للدرجة تتطلب أدوات من نوع آخر. وتشير خبرات البحث العلمى إلى أن كثيراً من أدوات التجارب المتوافرة، يتم العدول عنها لتطور فكرة ما جديدة فى اتجاه مختلف.

ولسنا ضد إتاحة أدوات البحث وإنما ذكرت هذه النقطة لتوضيح أضرار التدخل المبكر، قبل الأوان، للمنطق وتنظيم الأفكار.

فى التفكير الجانبى يتجول العقل ويسأل عن أى شىء يهمه ويلاحظ لمجرد الملاحظة

ودون هدف محدد ولا يتعجل فى الشرح ولا فى تقدير أهمية ما يراه. يلاحظ بعقل متفتح كل ما يمر أمامه أو يثير فضوله، فإذا جاءت الملاحظة بنتائج كان بها، وإذا لم تأت الثمار فلا داعى لاعتصار الأفكار بالقوة، وربما أثمرت هذه العملية الفكرية فيما بعد. ويحوى الوعى المنفتح كل ما يقدم إليه بلا حاجة لشرح أو لتصنيف أو لبناء منطقى فى كل لحظة. ليس عليك زن تكون على صواب فى كل لحظة، ولا لوم عليك إن أخطأت فى محاولاتك أو فاتك شىء. وتحت هذه الظروف المهيئة تعمل الصدفة Chance على تأليف (تركيب) الأفكار الجديدة.

والمبدأ الرابع للتفكير الجانبى هو استخدام **الصدفة** لتوليد أفكار جديدة. ويبدو مفهوم الصدفة مناقضا للتدبير.

ويستبعد إمكانية عمل شىء إزاء الصدفة، وهذا بالضبط هو سر قيمة الصدفة فى توليد الأفكار الجديدة.

وفى حياة كل إنسان أحداث مهمة غيرت مجرى حياته وكانت بالصدفة. وأحيانًا تتدخل الصدفة ليس بحدث واحد بل بسلسلة من الأحداث تمهد لقفزة علمية هائلة.

الصدفة هى قلب العملية الإبداعية وهناك أساليب لتشجيع وقوع الأحداث غير المدبرة (أو الصدفة المدبرة)، واللعب هو أفضل هذه الأساليب. اللعب بلاهدف وبلا اتجاه هو محاولة لتشجيع حدوث أشياء لانعرف كيف نبحث عنها. وكما أن التجربة العلمية محاولة لاستجواب الطبيعة، فاللعب أيضا هو تجربة مع الصدفة. وليس اللعب سهلا: فأى جهد جاد أو متعمد يفسد التجربة. وفائدة اللعب أنه بلا فائدة. ولأن اللعب لايلتزم بخطة أو اتجاه بعينه فهو يسمح للصدفة بوضع أشياء متباعدة تماما جنبا إلى جنب وببناء سلاسل من الأحداث لايمكن افشاؤها عمديا. ولأن اللعب يبدو بلا فائدة ينفر الناضجون منه ويتركونه للصغار ولايدرى هؤلاء قدر مايخسرونه باقتصارهم على التفكير الرأسى.

لو كان اللعب نبعا للإبداع والنبوغ فلماذا يكف الأطفال عن اللعب؟ ربما لأن عالمهم يتحول من عالم رائع عجيب يمكن أن يحدث فيه أى شىء، إلى مكان مألوف وروتينى كل ما يحدث فيه معروف وله تفسير فيتوقفون عن اللعب وعن التساؤل والتعجب والاستطلاع ويكتفون بتفسيرات الكبار المتعالمة.

وهكذا يقضي الكبار بمنطقهم الجامد وباصرارهم الدائم على البحث عن المنفعة والتحقير من اللعب، يقضون على إبداع الصغار.

عندما نلعب تأتى الأفكار إلى عقولنا وتولد فيها أفكارا جديدة. وإذا كانت لاتأتى فى طوابير منطقية مرصوصة إلا أنها تأتى بأعداد وفيرة. والشرط الوحيد أن يفتح العقل أبوابه

ولايحاول التحكم فى الأفكار بالقوة ويستمر فى حب الاستطلاع. وقد لاتبدو الأفكار مفيدة لأول وهلة ولكنها تعود الظهور حين نحتاجها. وحتى إن لم يأت اللعب بأفكار مفيدة فمجرد التعود على الموقف -استكشافه- يمد بأرضية تمهد لتطوير الأفكار فى المستقبل.

اللعب الحقيقى يبدو بلا فائدة ولكن على المدى الطويل فائدته مؤكدة.

وطريقة أخرى قديمة ومفيدة تنشط التفاعل والتلاقح بين الأفكار هى المطارحة الفكرية أو العصف الذهنى Brain Storming حيث يتحاور عدة مفكرين لحل مشكلة ما محاولين التحرر من قيود المنطق. ويقول كل منهم أى شىء يخطر على عقله ولاينتقد أيا من الآخرين أو يقيم قوله. ولايهم أن يقول شيئا له معنى أو علاقة بالموضوع. ويتطلب هذا الأسلوب مرانا طويلا ولكنه يأتى بنتائج رائعة.

وهناك طريقة مفيدة أن تتجول فى مكان ترى فيه أشياء جديدة بالصدفة فى محل تجارى كبير أو معرض أو حتى مكتبة. وكلما كان المكان أبعد عن الموضوع الذى يشتغل به عقلك كان ذلك أفضل. ولا تتعمد البحث عن شىء محدد، تجول بحرية، وكن مستعدا لتلقى أية فكرة تجذب انتباهك. ولاتحاول تحليل ما تلاحظه أو تقدير أهميته.

والتقط بهدوء أى شىء يعجبك بينما تحمل فى خلفية عقلك موضوعك الشاغل. وبالنظر إلى الشىء أو الفكرة أو النظرية التى التقطتها فى تجوالك الحر، فإنها ستربط نفسها بخيوط بالمسألة التى تبحثها، وتعيد ترتيب أفكارك بصورة جديدة تماما.

وتوجد طريقة تشجع التفاعل التلقائى (غير المدبر مسبقا) بين الأفكار. وحيث تشبك خطوط التفكير بدلا من تركها منفصلة متوازية، وعند نقط التقاطع ستلتقى أفكار لايمكن أن تلتقى لو استعملت التفكير النمطى. وكلما زاد عدد الأفكار الجديدة زاد احتمال توالد أفكار فعالة بينها. وفى هذه الطريقة بدلا من أن تركز على شىء واحد أو خط فكرى واحد وتتجاهل كل ما عداه، عليك أن تقفز بتفكيرك من خط إلى خط.

ويمكنك أن تستعير الفكرة التى تحصلها فى موضوع أو علم معين إلى آخر مغاير (ويسمى هذا التفكير عبر التخصصى Interdisciplinary Thinking)، وحتى مجرد نقل طريقة للفكر من مجال إلى آخر يعد فى ذاته فكرة أصيلة.

وبالمثل إذا رتبت المعلومات فى حزم محكمة الربط وأغلقت الطرق التى تدخل منها أية معلومات لاتبدو لها علاقة بالموضوع فلن تولد لك الصدفة أية أفكار جديدة. ولأن علاقة المعلومات الواردة عليك بالموضوع الذى تفكر فيه لاتكون إلا بالنسبة لطريقة تفكيرك الراهنة وبالتالى لن تؤدى أية معلومة، ومهما كانت، إلا لترسيخ الطريقة التى تفكر بها.

ولن تفيد أية محاولة لتجديد طريقة تفكيرك مادمت متمسكا بشرط علاقة المعلومات بالموضوع، ولأن العلاقة بالموضوع لاتحتوى إلا على نفس طريقة التفكير. ولا أمل فى الفكاك من سجن التصورات القديمة إلا بتدخل الصدفة لتهدمه وتحررك.

والموقف العقلى الأمثل هو أن يفتح عقلك كل منافذه ليتقبل كل معلومة تأتى بالصدفة إليه أو تمر أمامه. وأن لايختزن عقلك المعلومات تحت عناوين ثابتة أو فى ملفات مرتبة، وبدلا من التصنيف والترتيب تترك المعلومات سائبة (طليقة) لتتفاعل معا. ويراقب الانتباه الساحة من أعلى ومن بعيد ولايتدخل ولايرتب ويلاحظ ظهور فكرة جديدة لأول مرة ولكنه لايطيل النظر إليها حتى لايجمدها فى النمط القديم.

وفى هذه الحالة العقلية المثلى للخلق والتجديد يكون العقل كالبيت المفتوح يدخله الزوار والمدعوون والمرغوبون وغير المرغوبين والغرباء بل وحتى اللصوص. عقل مفتوح لدخول أى فكرة تمر به، ولكن تنامى كمية المعلومات الرهيب (انفجار المعلومات) يصنع مشكلة.

يتضاعف كم المادة العلمية مرة كل عشر سنوات. وتستحيل تغطية كل المادة العلمية المتعلقة بموضوع واحد فى تخصص علمى وحتى البحث بالكومبيوتر لايحل هذه المشكلة. ولامفر من تضييق دائرة الاهتمام والتخصص وينتهى الحال إلى نفس تأثير التفكير الرأسى والتعمق فى الحفر فى اتجاه واحد كما أوضحنا من قبل. ومع تضخم المادة العلمية المتراكمة يتضاءل الأمل فى استعارة أفكار جديدة من حقول تخصص أخرى.

والمشكلة حقيقية، فلو كنت مهتما بموضوع ما فى فرع من العلوم وقرأت مقالة عنه فى دورية علمية، فمن المحتمل أن تجد المقال التالى له علاقة مابموضوعك. وفى أى عدد يصدر من دورية تربوية مختارة عشوائيا (إن كنت باحثًا تربويًا)، سوف تجد مقالة أو مقالتين لهما علاقة ببحثك.

ليس من العدل أن نحسد المكتشف على حسن حظه، لأن عقله المستعد يلتقط الفرص وهى متاحة للجميع. ويعمل هذا العقل كميكانيكى موهوب بلغت براعته درجة أنه يستطيع إصلاح أية سيارة تقريبا مهما بلغت أعطالها.

وإذا واصلت التمرين على رؤية الشىء الواحد بطرق عديدة متنوعة فسيتمكن عقلك من بناء سياق حول أية كتلة من المعلومات ترد عليه. وكلما تطورت لديك مهارة التفكير الجانبى قدمت لك الصدفة المزيد من الخدمات والمعلومات وروابط بين الأفكار. ليس الإنسان أن يتحكم فى الصدفة ولكن بمقدور كل من يهمه الأمر أن يتعلم فن حصاد الصدفة.

وهناك طريقة بسيطة تفيد فى تكوين أفكار جديدة فتختار عشوائيا أى شىء من حولك وتحاول ربطه بموضوعك (السؤال الذى تبحث عنه). ومع التدريب ستلاحظ أن خيوطا من العلاقات تنمو وتمتد لتربط بين الشىء (العشوائى) وموضوعك الشاغل. وسيقدم لك هذا:

- رؤية جديدة للأشياء.
- اقتراحا لمبدأ جديد أو علاقة.
- حلقة وصل تؤدى لمسألة أخرى لها علاقة ببحثك.
- تحذيرا من طريق فكرى مسدود عليك ألا تتورط فيه.

معنى الشىء لايكمن فيه وإنما هو وصف الطريقة التى يؤثر بها فى عقلك، الطريقة التى يجلب بها فكرة ما أو يشكلها. وشكل الفكرة ربما يكون جاهزا من قبل أو قد ينمو بسرعة حول الشىء (المختار عشوائيا ويمكن أن نسميه بالبذرة) ليضعه فى سياق ويحدد معناه.

مع استحالة تغطية كل المعلومات المتعلقة بالموضوع الذى يفكر فيه الفرد، يبدو أن التخصص وتضييق دائرة الاهتمام ضرورة. ولكن من المهم الدعوة إلى العكس -أى عدم تحديد الاهتمام- والاعتماد على الصدفة فى ترتيب اللقاء بالأفكار الجديدة.

فى إحدى الطرق المعروفة لتجنب عقم التركيز على شىء واحد هى أن تحول انتباهك لشىء آخر فى فترات راحة (أجازة) قصيرة. ورغم ذلك، من المهم أن تسمح للمؤثرات الخارجية بالدخول إلى دائرة الانتباه فتكسر بها جمود النظرة الواحدة للأشياء. الطريقة الأولى قد تخرجك من طريق مسدود، أما الثانية فتخرجك من الطريق المسدود وتضعك فى طريق جديدة مفتوح.

استخدام الصدفة فى إيجاد الحلول والأفكار سلبى ولكنه يقظ. وليس سهلا أن تتخلص من التفكيرالعمدى بجهد عمدى. وفى بداية استخدام هذه الأساليب سيبدو لك الانتظار مريبا فما يدريك أن «شيئا ما» سيقدم لك نفسه بالصدفة ويقدم لك الحل؟ ومجرد كلمة «الصدفة» توحى بأن لا شىء سيظهر مما يقوى اغراء تنسيق الأفكار عمديا والسير على الدروب القديمة. ولابد من الصمود أمام هذا الاغراء ولابد من بناء الثقة فى التفكير الجانبى. والثقة ثمرة التدريب الطويل واكتساب المهارة والسلاسة ورؤية النتائج بنفسك، ولاتوجد وصفة جاهزة للوصول إلى البراعة.

رابعًا : مجالات استخدام التفكير الجانبى وأهدافه :

يصلح التفكير الجانبى فى كل مجالات الفكر والفعل، ولايقتصر استعماله على اختراع الأجهزة العلمية، وذلك ما يوضحه الحديث التالى :

يمكن النظر إلى العلم والفن كصورتين لشىء واحد، إلا أن العلم أسعد حظا لأن جمال الفكرة الجديدة مستقل عن الآراء الشخصية وعن الموضة السائدة. وليس فى العلم تورط عاطفى مع موضوع البحث، وليس له جذب يؤثر فى عامة الناس، ولكن العلم على حق فى ذاته. فعلى سبيل المثال: يوضح الفرق بين الفنان والعالم من تصميم لآلة طائرة ابتكره العالم الفنان العبقرى **ليوناردو دافنشى**. وفى الرسم حرص **دافنشى** على أدق التفاصيل بما فيها السلم الذى يصعد عليه الملاح للآلة، ولكنه لم يهتم بقدرة الآلة فعليا على الطيران. طغى الفنان فى **دافنشى** على العالم المخترع فاهتم بكمال وجمال ما تراه العين فى أعماله، وترك الإمكانية العملية للآلة والتى تخرج عن دائرة التذوق الجمالى.

وأكثر العلماء يمكنهم أن يتعلموا عن التفكير الجانبى من متابعة الفنانين. ولكن أغلب الفنانين لو فرضت عليهم متابعة التفكير الجانبى حتى النهاية فيعانون بشدة. وقد يرى البعض فى حياة الفنانين البوهيمية التعبير الأمثل عن طريقة التفكير الجانبى. وهذه رؤية خاطئة، لأن مخالفة المعتاد والفوضى ليست كل شىء فى هذا التفكير. ليس الغرض من التفكير الجانبى أن يلقى صاحبه بنفسه فى أحضان الفوضى العشوائية، وإنما أن يخرج منها بنظام أقوى وأبسط. ويستمر الفكر فى انطلاقته ليبدل فكرة بفكرة أفضل وبلا نهاية. ويمسك صاحبه بزمام المبادرة فيبحث عن طرق جديدة لرؤية الأشياء وللعمل ولايقعد منتظرا أن تدعوه الحاجة الملحة لذلك.

وللفكاهة وفنونها علاقة حميمة بالتفكير الجانبى، فالضحك نتيجة لتحول مسار التفكير من ممر الاحتمال الأعلى (النمطى- المطروق- المألوف) إلى ممر جانبى له احتمال أدنى. ويتذبذب الفكر بين الرؤية المعتادة للموقف المضحك وبين رؤية بديلة ولها معقوليتها أيضا ولكنها تظهر فجأة. ويستمد نجاح النكتة -الكفاهة من قوة الدافع النفسى، ولهذا تنجح النكتة الجنسية دائما.

ويبرع الفنان الفكاهى فى توجيه فكر مشاهديه صعودا فوق درجات من الضحك، وكلما تقدم فى عرضه زادت قدرة جمهوره على متابعة الطرق (الجانبية) البديلة التى يقدمها فجأة. ولهذا يفهم من يتمتع بحاسة الفكاهة التفكير الجانبى ويقدر قيمته بسهولة.

توليد الأفكار الجديدة هو الهدف من التفكير الجانبى وهو أسهل من تنفيذ هذه الأفكار المبتكرة. وغالبا ما يكون المستفيدون من هذه الأفكار والقادرون على تنفيذها غير

أصحابها، ولابد من انتقال اقتناع صاحب الفكرة وحماسته المتقدة للمنفذين والمستفيدين منها. ويوجه عام تسود الحماسة لوجود أفكار جديدة فهى تبشر بمستقبل أفضل، أما تجاه كل فكرة جديدة محددة المعالم فالمشاعر فاترة. ويشبه هذا الموقف الشائع رجلا عانى من برد الشتاء طوال ليلة وفى الصباح أشرقت الشمس وغمرت بدفئها المكان، ولم يخرج صاحبنا من البيت ليستمتع بدفئها واكتفى بحمد الله وشكره على هذه النعمة.

وهذا بالضبط حال المجتمعات التى تشيد بالأفكار المبتكرة وتعجب بها ولكنها لاتفعل شيئا لتستفيد منها.

لايهتم الناس بفكرة لمجرد أنها جديدة وإنما أيضا لأنها فعالة، وتعتمد هذه الفعالية على وجود الشخص الذى يقدر قيمتها أكثر مما تعتمد على الفكرة نفسها. وإذا كان الربح المالى والمجد والشهرة أشياء تتوقف على نجاح الفكرة، فإن وجود شخص لديه دافع قوى لتقدير صائب للفكرة أمر لاغنى عنه. ولكن لسوء الحظ يتوقف التقدير السليم للفكرة على الخبرة السابقة، وبالطبع تأتى الأفكار الجديدة من خارج دائرة الخبرات القديمة. أى أن الفكرة الجديدة تقابل -غالبا- بالرفض والعداء، لأن الإنسان عدو مايجهل، وتميل كفة الميزان لجانب القديم. وذلك ليس دعوة لترك القديم بكليته وإنما تحقيق التوازن الأمثل بين القديم والجديد.

وفى دنيا الصناعة يوازن رجل الصناعة، الذى ترد عليه فكرة مبتكرة، بين خوفين:

١ - خوفه من أن يرفض الفكرة ويستغلها أحد منافسيه ويربح ثروة من ورائها.

٢ - خوفه من الخسارة إذا تبنى الفكرة وفشل فى استخدامها.

والوضع الأمثل لصاحب صناعة أن يأتى تاليا لصاحب أول تجربة ناجحة للجديد، ووراء هذا «الثانى المحظوظ» يقف طابور طويل من المقلدين وحتى الوصول لدرجة تشبع السوق بالمنتج الجديد.

ليست كل استخدامات التفكير الجانبى عن انفاق المال أو المجازفة به فى تطوير منتجات جديدة، ولكنه أيضا يمتد إلى توفير المال وتقليل الانفاق، فمثلا:

١ - طريقة أكفأ لانجاز عمل ما.

٢ - استغلال العادم والفاقد كمادة خام.

٣ - تصميم منتج أفضل وأسهل فى طريقة التصنيع.

٤ - تقليل التكاليف دون الإخلال بالكفاءة وهكذا.

ولايقتصر هذا التفكير على البحث العلمى وتطوير المنتجات الصناعية، بل ويهتم أيضا بالتنظيم والإدارة ومناهج البحث وتحليل القيمة وبحوث العمليات. ولكل مجال من

هذه الأربعة أساليبه الفعالة ورصيد من الخبرة فى خدمته، ولكن مبدأ واحدا يتخللها جميعا، وهو مبدأ التحليل الفعال Effective Analysis وللأفكار الجديدة والذى يحتاج تطبيقه لمهارات التفكير الجانبى. ويمكن زيادة كفاءة أداء أى عمل وتقليل التكلفة باستخدام التحليل الفعال وأساليبه المعروفة. ولكن فكرة واحدة جديدة تأتى بالمزيد ولاحدود لتأثيرها، فقد توفر فكرة واحدة الملايين.

لايهتم التعليم التقليدى بتطوير عادات التفكير الجانبى، ويقصر اهتمامه على التفكير الرأسى وتلقين المعارف التى يرى القائمون به أنها نافعة. وتبقى القدرة على توليد البدائل الفكرية مسألة استعداد طبيعى لصاحبه، وقدرة تعيش رغم أنف النظام التعليمى المقصور علي التفكير الرأسى والتقليد والتلقين، ولسنوات طويلة يظل فيها المفكر تحت هذا التأثير السلبى على قدراته المتميزة. يتجاهل نظام التعليم التقليدى تطوير التفكير المبدع ويتجاهله أيضا أصحاب القدرات المتميزة فيبدون كفاشلين لأصحاب النظرة المتعجلة للأمور.

ماذا تفعل فكرة جديدة فى عقل صاحبها أو فى عقول الآخرين؟

تطلق الفكرة أفكارا أخرى فى عقل صاحبها وعقول أخرى تتصل به، وتحدث صورة من التفاعل المتسلسل Chain Reaction، وتتوالى الأفكار الجديدة. دعنا نستعير مثالا من دنيا الطاقة الذرية يعبر عن التغير المترتب على فكرة ثورية وما يحدثه فى المجتمع، وننوه من خلاله لأهمية إيجاد توازن فى المجتمع بين الإبداع والتجديد وبين الثبات والتقليد. فى المفاعلات النووية Atomic Piles تتم عملية الانشطار النووى والتفاعل المتسلسل، وهى عملية تطلق طاقات هائلة ولابد من احتواء وترويض التفاعل. وبإدخال عصى من عنصر الكادميوم تمتص الجسيمات الذرية المتطايرة وتحد من التفاعل المتسلسل، وإلا تحول التفاعل المستأنس إلى انفجار مدمر. وإذا زاد عدد عصى الكادميوم خمد التفاعل. وكذلك الحال فى دنيا الناس، حيث يتكون المجتمع من خليط من البشر بعضهم يمثل الانطلاق نحو التغيير والاندفاع للمستقبل والبعض الآخر «عصى الكادميوم» من الذين يفتقدون القدرة على فهم وتقدير الأفكار الجديدة. ولكل من نوعى البشر دوره فى المجتمع (المفاعل النووى) فوجود عدد ملائم من عصى الكادميوم يمنع الانفجار أما زيادتهم فتقضى على المجتمع بالجمود والركود.

وليس هناك مايمنع أى إنسان من أن يتعلم عادات ومهارات التفكير الجانبى ويستفيد منها ويفيد الآخرين. وهذا النوع من التفكير مهارة جديدة تماما مثل أن نتعلم لعب الكرة أو السباحة أو لغة أجنبية. وكأية مهارة لابد من ممارستها بانتظام ولاتكفى القراءة عنها ليصبح الفرد خبيرا فيها. ولاتوجد وصفة سحرية تعطى صاحبها القدرة على التفكير

الفعال بهذه الطريقة. وفى ثنايا الحديث السابق، وضعت بعض أساليب التفكير الجانبى، ويمكن أن يتدرب الفرد عليها ويمارسها ويستفيد منها، مع مراعاة أن الموقف الذهنى Mental Attitude واكتساب عادات ذهنية معينة أهم من معرفة الأساليب. وتكتسب هذه العادات الجديدة بالممارسة وبتدريب خاص بها، ومن المفيد أن يكون للفرد مدرب خاص كأية لعبة رياضية، ولكن أهم بكثير من المدرب أن يلاحظ ويدرس الأشياء التى تعوق تدفق هذا التفكير عنده وعند الآخرين.

ليس من السهل أن نخرج من طريقة محددة نرى بها الأشياء ونبدأ من الصفر. وكثيرا ما توجد عناصر فكرة جديدة متناثرة، والمطلوب إيجاد طريقة لجمعها فى وحدة لها معنى. ويبحث المفكر الجانبى هنا عن تعريف ملائم للمشكلة، أى يبحث عن السؤال الصحيح الذى يحدد ملامح المشكلة. ودون مهارة التفكير الجانبى لايحقق المتخصص الاستفادة الكاملة من علمه وخبرته. وعلى النقيض قد يمر زائر من خارج دائرة تخصص ما ليرى بنظرة واحدة حل مسألة حيرت أهل الاختصاص.

وبعض الأفكار المتواردة تعمل كحلقات وصل بين القديم والجديد. وبنفس الطريقة تبدو مجموعة أفكار متناثرة، حتى ترد على العقل الباحث فكرة جديدة تربطها فى وحدة لها معنى. ويمد التفكير الجانبى جسورا تربط بين جزر متباعدة من الأفكار.

تشوب أى قرار نتخذه درجة من عدم التأكد، ويحتاج صانع القرار لبناء الثقة حتى يمضى فى اختياره. ويميل البعض لبناء الثقة فيما يفعل على أساس أنه لايرى أية بدائل. من المهم أن يبنى صاحب القرار ثقته على رؤية بدائل عديدة وينمى لديه الشعور بحريته لاختيار أى بديل منها أو حتى يأتى ببديل جديد من غيرها. إن عدم رؤية بدائل ربما كان علامة على فقر الخيال ومحدودية التصور، لذلك من الضرورى إثراء فكرة بأكبر عدد من البدائل يمكن للفرد رؤيته، ويستعين أيضا بأفكار الآخرين. وفى مرحلة تالية يفاضل بين الاختيارات ويقبل ويرفض، ويخرج فى النهاية بقرار جرئ حر.

ولاتنتهى معاناة المبتكر بدخوله إلى معترك الحياة العملية، حيث يعمل تحت امرة من هم أعلى منه رتبة وأدنى فكرا ويخضع لأفكارهم. ويتهمه رؤساؤه بأن عقله كالفراشة يقفز فجأة من فكرة لفكرة، وهذه ظاهرة حقيقية ولكنها تلعب دورها فى خلق الأفكار الأصيلة. وهنا يفشل أهل الإدارة والأمر النافذ فى التمييز بين نوعين من البشر يعملون تحت إدراتهم: «المبتكرين المجددين» و«المنفذين».

وعلى الإدارة أن تقدر قيمة التفكير المبتكر وقيمة المنفذين وتهيئ ظروف عملهم معا كفريق، ودون المنفذين لاتخرج الأفكار من الأدمغة ومن على الورق إلى الواقع. وكل منظمة أو شركة تحتاج إلى قلة من المفكرين وأغلبية من المنفذين وقادة يقدرون قيمة الفكر المجدد لتحقيق النجاح.

ويميل المفكرون لاحتقار المنفذين لأنهم يرونهم دائما منشغلين بتطبيق أفكار يرونها من الدرجة الثانية ويعملون بصبر ودأب. ويفوتهم أنه لولا المنفذون بمهاراتهم اليدوية والعملية وصبرهم وطاعتهم لما كانت لأفكارهم أية فايدة. ونلتمس العذر للمنفذين فى انشغالهم بتحقيق أفكار من الدرجة الثانية ونرى فيهم الطاعة والكفاءة والنشاط. إن المفكرين كسالى، ولايقومون بالعمل إلا تحت رفع الهامات لأفكار رائعة. وإذا كان المنفذ يحل المشكلات بطرق أصعب فربما لأنه نشط مقدام، وربما يحل المفكر المشكلات بالطريقة الأسهل لأنه كسول أو أنه لايعرف أصلا الطريقة الأصعب المتداولة ويتمتع بميزة جهله. وأصغر فريق بحث Research Team ناجح من مفكر واحد ومنفذ واحد يعملان بروح الفريق.

مع تقدم العلم وتكنولوجيا البحث لم يعد بإمكان هاو ثرى مثل السير **همفرى دافى** الانفاق من أمواله الخاصة على أبحاثه. وأصبحت مؤسسات ضخمة تمول الأبحاث وتفرز هذه الجهات الممولة الأفكار التى تراها جيدة وتختار أشخاص الباحثين. وحاليا يحكم نظام المنح Grants ومشروعات البحث Research Projects تمويل البحث العلمى، ومن الصعب حتى الآن -تصور نظم بديلة. ويعيب هذا النظام أن إداريين يتحكمون فيه، وهذا امر طبيعى لندرة الباحثين الذين يمكنهم تولى الإدارة. وحتى تضمن الإدارة النتائج البحثية فغالبا ما تدعم مشروعات جربت ونجحت من قبل وتكررها بعد عمل تعديلات بسيطة، وطبعا لاتكون النتائج جديدة تماما.

وعقبة أخرى فى طريق البحث العلمى الأصيل: أن على الباحث أن يقدم وصفا مفصلا للمشروع البحثى الذى يقترحه، ولايمكن تحديد خط سير بعض الأبحاث بهذه الطريقة. والنتيجة أن المشروعات المغلقة ذات النهاية المعروفة هى التى تحظى بالتمويل، بينما ترفض الجهات الممولة المشروعات مجهولة النهاية. ومع الوقت تتزايد صعوبات الموازنة بين احتياجات البحث العلمى وضرورات الإدارة والتمويل.

تناولنا فى الحديث السابق استخدام التفكير الجانبى والتعامل مع الأفكار الجديدة لإخراجها إلى حيز الواقع. وناقشنا الأحوال الملائمة التى تلائم أصحابه، وننهى حديثنا هذا بسؤال أخير:

هل توجد طريقة لفرز المفكرين الجانبيين من بين سائر الناس؟

وأول ما يتبادر للذهن كإجابة استخدام اختبارات الذكاء I.Q.test وهى لاتفيد فى هذا الغرض لأن تصميمها قائم على أن الإجابات المعتادة والتى يأتى بها أغلب الناس هى الصحيحة. وكلما زاد عدد الإجابات المطابقة لإجابات «الأذكياء» زاد معدل قياس الذكاء I.Q لصاحب الإجابات. وعلى العكس يبحث التفكير الجانبى عن الإجابات غير العادية

والتى تخالف ما اعتادته الأغلبية، ويبحث عن رؤية الأشياء بطرق عجيبة لم يرها بها أحد من قبل. وأحد نماذج الأسئلة المعتادة فى قياسات الذكاء، تقديم عدة أشكال بينها أوجه تشابه، ويكون المطلوب اختيار الشكل الشاذ من بينها (أكثرها اختلافا). وعلينا أن نلاحظ أن شخصا واسع الخيال يمكنه اختيار شكل غير الذى ينص حل الاختبار عليه، أى يرى الأمور بنظرة تخالف النظرة السائدة، ويشرح أسبابا معقولة تدعم اختياره. ولكن اختبار الذكاء يعاقبه على خياله الواسع فيخصم منه درجة السؤال بدلا من أن يكافئه على تميزه.

ويمكن تصميم اختبارات خاصة لفرز الموهوبين فى التفكير الجانبى، ولكن أغلبها لايهتم بالنتيجة بقدر ما يهتم بملاحظة طريقة تعامل الشخص مع المشكلة، ومرونة تفكيره، وتغييره لمداخل الحل، وتجنبه للفخاخ والطرق المسدودة. وطبعا تختلف هذه الاختبارات عن أية اختبارات عادية مكونة من أسئلة وإجابات محددة، لأن التفكير المجدد يتجاوز حدود الصواب والخطأ.

خلاصة القول :

يمكن تلخيص وتسلسل الفكرة الرئيسة فى جميع جوانب الحديث السابق، فى الآتى:

الفروق بين التفكير الرأسى الذى يتحرك إلى الأمام عبر المسار ذى الاحتمال الأعلى (المطروق- المألوف- النمطى)، والتفكير الجانبى الذى يتحرك جانبيا عبر المسارات الأدنى احتمالا، تتمثل فى الآتى:

* التفكير الرأسى لايأتى بأفكار جديدة، مهما كان الجهد المبذول فى ذلك.
* تستقطب الأفكار السائدة فى التفكير الرأسى الأفكار الأخرى من حولها وتديرها فى فلكها.
* يستوجب التفكير الجانبى تمرينا بصريًا.
* يتحقق فى التفكير الجانبى البحث عمديا عن طرق متعددة للنظر إلى شىء واحد.
* غرور التفكير الرأسى يمنع بزوغ أفكار جديدة.
* فى التفكير الجانبى، يتم استغلال الصدفة والاعتراف بقيمتها، وعدم التدخل فى عملية التفكير، وتشجيع العمليات التى تجرى بالصدفة، ثم حصاد النتائج.
* يتم تقديم أمثلة تشرح الاستخدام العملى لأحد جوانب التفكير الجانبى (كيف يتوصل الفرد لأفكار مبتكرة وتصميمات لاختراعات باسمة وفى نفس الفترة التى كانت تتشكل فيها فى ذهنه معالم التفكير الجانبى).
* ما يخسره من لايمارس التفكير الجانبى كثيراً، وخاصة عندما يكتفى بالتفكير الرأسى.

* أهمية استغلال التفكير الجانبى ومايثمره من أفكار جديدة.

وعلى الرغم من أن التلخيص السابق يحاول تجزئة الموضوع، فهناك ثلاث نقاط أساسية تتكرر، ويدور حولها التفكير الجانبى، وهى:

* حدود التفكير الرأسى تمنعه من خلق أفكار جديدة.
* استخدام أساليب التفكير الجانبى تسهم فى خلق أفكار جديدة.
* الهدف من التفكير الجانبى هو: خلق أفكار جديدة بسيطة وصحيحة وفعالة.

وبالطبع تبدو أساليب التفكير الجانبى مفتعلة جدا، لأن الطريقة الطبيعية لعمل العقل هى الرأسية. وإلى أن يصير التفكير الجانبى عادة، تفيدنا الأساليب الجانبية، إذ تشكل قنوات مصطنعة تحول تدفق الأفكار عن قنوات التفكير الرأسى ذات الاحتمال الأعلى.

ومما يجذب الاهتمام للتفكير الجانبى أنه بحث مثير عن أفكار جيدة وبسيطة ومجال مفتوح للجميع لأنه لايقوم على ارتفاع درجة الذكاء.

ولاتنبع الحاجة للتفكير الجانبى من طرق التلاعب بألفاظ اللغة التى نصف بها الأشياء، وإنما تمليها طريقة عمل وبناء الدماغ والجهاز العصبى والتى تحدد طريقة التفكير.

المراجع

* مستخرج من المصدر التالى :

إدوارد دى بونو، ترجمة إيهاب محمد، **التفكير المتجدد «استخدامات التفكير الجانبى»**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.